

الأصول الأولى لقدّاس لقّان عيد الغطاس في الكنيسة القبطية

- (١) تقديم: ١
 (٢) من هو صفرونيوس بطريك أورشليم؟ ١
 (٣) نصُّ إفشين الظهور الإلهي لصفرونيوس بطريك أورشليم: ٢
 (٤) تعقيب على النص: ٥

(١) تقديم:

قدّاس لقّان عيد الغطاس الذي نُصليه اليوم في عموم الكنائس القبطية، مقتبس من إفشين (أوشية) صفرونيوس بطريك أورشليم (٥٦٠-٦٣٨م).

(٢) من هو صفرونيوس بطريك أورشليم؟^(١)

عاش صفرونيوس في الفترة من (٥٦٠-٦٣٨م)، وصار بطريكاً لأورشليم سنة ٦٣٤م. وأمّا تطابق اسمه "صفرونيوس" Sophronius والمشتق من Sophist أي "الفيلسوف"، فلم يُعد محل نزاع اليوم.

وعندما بلغ العشرين من عمره، صار راهباً في مصر، أي حوالي سنة ٥٨٠م. ثمّ انتقل بعد ذلك إلى دير قرب نهر الأردن. ثمّ انتقل نهائياً إلى أورشليم سنة ٦١٩م.

ومنذ سنة ٦٣٣م، صار صفرونيوس، هو المناوئ الرئيسي لمذهب "المونوثيلية"^(٢)، ودافع عنه المقوقس بطريك الإسكندرية الملكاني.

وأقيم صفرونيوس بطريكاً لأورشليم سنة ٦٣٤م.

ولم تدم المونوثيلية طويلاً، حيث سرعان ما تلاشت في أواخر نفس القرن السّابع الميلادي.

وقد كتب صفرونيوس سيرة حياته مطوّلة. وقد حُفظت لنا من كتابات صفرونيوس بعضُ عظاته، وكثيرٌ من أشعاره. وقبل نياحته بقليل والتي كانت سنة ٦٣٨م، شهد احتلال المسلمين للقدس بقيادة الخليفة عُمر بن الخطّاب سنة ٦٣٧م، ودخولهم كنيسة القيامة.

1. Cf. ODCC, 2nd edition, p. 1291.

٢- في أوائل القرن السّابع الميلادي ظهر مذهب "المونوثيلية" Monothelism - μονοθεληται. والكلمة اليونانية تتكوّن من مقطعين، المقطع الأوّل أي "واحد"، والمقطع الثّاني θέλειν أي "مشيئة". أي مذهب "المشيئة الواحدة". وهذا المذهب يقول بأنّ المسيح الابن المتجنّس، له فعل واحد ومشية واحدة، كمحاولة للابتعاد عن الحديث عن طبيعة واحدة أو طبيعتين في شخص السيّد المسيح، وهي القضية التي كانت سبباً في شطر الكنيسة الأرثوذكسية إلى قسمين بعد مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١م.

فلقد حاول الإمبراطور هرقل - لتوحيد صفوف إمبراطوريّته في حروبه مع الفرس - أن يجتذب إلى الكنيسة مرّةً أُخرى، الذين قالوا بطبيعة واحدة في شخص السيّد المسيح. وعُرض هذا الاقتراح على سرجيوس بطريك القسطنطينية. كما عيّن الإمبراطور هرقل، البطريك الملكاني كيروس أو المقوقس على مصر، والذي كان متحمّساً لقضية "المشيئة الواحدة". ولكن لم يقبل الأقباط بمذهب "المونوثيلية". ومن ثمّ، تعرّض البابا بنيامين الأوّل (٦٢٣-٦٦٢م) للاضطهاد من قِبَل المقوقس، بسبب رفضه لهذا المذهب. فهرب البابا بنيامين إلى صحراء الإسقيط.

(٣) نصُ إفشين الظهور الإلهي لصفرونيوس بطريك أورشليم^(٣):

وهذا الإفشين هو صلاة على ماء لقان الغطاس، وليس على ماء المعمودية. ولا توجد حتى الآن شهادات قديمة يمكن الاعتماد عليها، تنسب له هذه الصلاة، ولكن التقليد البيزنطي يقول بذلك.

وأوردُ فيما يلي نص الإفشين كاملاً، ثم أوضح للقارئ العزيز كيف اقتطع منه النَّاسخ القبطي ما يختص بقُداس لقان عيد الغطاس في الكنيسة القبطية، مع إضافة مرَدَّات للشَّماس وللشَّعب، لكي يأخذ الإفشين أو لكي تأخذ هذه الأوشية شكل ليتورجية القُداس الإلهي.

وما أضافه النَّاسخ القبطي على هذا الإفشين كتبته باللون الأحمر، وهو بالطبع خارج نص الإفشين نفسه.

النَّص:

”أيها الثالوث الفائق الجوهر، الفائق الصَّلاح، اللاهوت الكلِّي الاقتدار، الرقيب على الكل، غير المنظور، غير المدرك. يا مبدع الجواهر العقلية والطبائع الناطقة. الصَّلاح المحض. الثور الذي لا يُدنى منه. المنير كلِّ إنسانٍ آتٍ إلى العالم. أضعتني أيضاً أنا عبدك غير المستحق. أتر عيني عقلي، لكي أحسُر أن أسبِّح إحسانك الذي لا يُحصى وقُدرك العظيمة. وليكن ابتهالي عن هذا الشَّعب الواقف، حسن القبول لديك. فلا تحوّل خطاياي الكثيرة، دون حلول روحك القُدوس ههنا. واسمح أيها الفائق الصَّلاح أن أهتف إليك بغير دينونة وأقول:

نمجدك أيها السيّد محب البشر، الضَّابط الكل. الملك الذي قبل الأزل. نمجدك أيها الخالق والمبدع الكل. نمجدك يا ابناً وحيداً لله^(٤). يا من هو بغير أب من جهة أمّه، وبغير أم من جهة أبيه. فإننا في العيد الماضي^(٥) قد رأيناك طفلاً، وأمّا في هذا العيد الحاضر، فنشاهدك كاملاً يا إلهنا الكامل الظاهر من الكامل. اليوم قد بلغنا إلى أوان العيد، و موكب القديسين يجتمع إلينا، والملائكة يعيدون مع البشر.

اليوم، نعمة الرُّوح القُدس حلّت على المياه بمهية حمّامة.
اليوم، أشرقت الشَّمس التي لا تغرب، والعالم يستنير بنور الرّب.
اليوم، القمر يتلأل مع العالم بالأشعة السَّاطعة.
اليوم، الكواكب المضيئة تزين المسكونة ببهاء إشراقها.
اليوم، السُّحب من السَّماء تنديّ البشر بغيث البر.
اليوم، غير المخلوق يقبل بإرادته وضع اليد من حبلته.
اليوم، النَّبي والسَّابق يتقدّم إلى السيّد، لكنّه يقف برعدة عند مشاهدته تنازل الإله إلينا.
اليوم، مياه الأردن تتحوّل إلى شفوية بحضور الرّب.
اليوم، الخليفة كلُّها ترتوي بالمجاري السريّة.
اليوم، زلّات البشر تُمحي بمياه الأردن.
اليوم، الفردوس فُتح للبشر، وشمس البر تنيرنا.
اليوم، الماء المر على عهد موسى، يتحوّل للشَّعب إلى عذوبة بحضور الرّب.

٣- كتاب الميناون، الجزء الثاني، طُبِع بإجازة من ألكسندروس الثالث بطريك أنطاكية وسائر المشرق، للرُّوم الأرثوذكس، دمشق سنة ١٩٥٨م، ص ٨٠ تحت يوم ٦ كانون الثاني.

وكتاب الميناون، هو أحد الكُتب الطقسية المستخدمة في الكنيسة البيزنطية، ويُسمّى بالشَّهري. ويحوي مجموعة الصَّلوات التي تشتمل على خدمة الأعياد السَّيدية وتذكارات القديسين. وقد اعتنى به ألكسندروس الثالث بطريك أنطاكية وسائر المشرق.

٤- هنا حدث انتقال من مخاطبة الأب إلى مخاطبة الابن.

٥- هنا شهادة وثائقية تفيد استقرار احتفال كنيسة أورشليم بعيد الميلاد مستقلاً عن عيد الإيفانيا في مطلع القرن السابع الميلادي. وكانت أوّل إشارة وثائقية عن استقلال العيدين، هو عظة للقديس يوحنا ذهبي الفم في أنطاكية سنة ٣٨٧م.

اليوم، أعتقنا من التُّوح القديم، وكمثل إسرائيل جديد، خلصنا.

اليوم، نجونا من الظلمة، وبنور معرفة الإله استرنا.

اليوم، قتام العالم يتلاشى بظهور إلهنا.

اليوم، الخليقة بأسرها تستضيء من العلى.

اليوم، الضلالة قد بطلت، وورود الرب قد صنع لنا منهجاً للخلاص.

اليوم، العلويين يعيدون مع السفليين، والسفليون يناجون العلويين.

اليوم، محفل مستقيمي الرأي الشريف والعظيم الصوت، ينتهج.

اليوم، السيد يوافي إلى المعمودية لكي يصعد البشر إلى العلاء.

اليوم، العادم أن يكون مُنحياً، ينحني لعبده لكي يعتقنا من العبودية.

اليوم، قد ابتعنا ملكوت السموات، فإن ملكوت الرب لا نهاية له.

اليوم، الأرض و البحر يتقاسمان الفرح، والعالم يمتلئ سروراً.

أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه ففزعت.

الأردن رجع إلى الورا لما عاين نار اللاهوت منحدره وحالة فيك بالجدس.

الأردن رجع إلى الورا عند مشاهدته الروح القدس بهيمة حمامة، منحدرًا ومرفقًا عليك.

الأردن رجع إلى الورا عندما رأى غير المنظور منظورًا، و الخالق متجسدًا، والسيد بصورة عبد.

الأردن رجع إلى الورا والجمال تهللت، لمشاهدتها إلهًا في الجسد. والسحب أبدت صوتها متعجبة من الآتي، وهو نور من

نور وإله حق من إله حق، مغرقًا الأردن في موت المعصية وشوكة الضلالة وعقال الجحيم، ومانحًا العالم معمودية الخلاص.

فكذلك أنا عبدك الخاطيء غير المستحق، إذ أذيع عظام عجائبك، يشملني الخوف، فأهتف إليك بخشوع قائلاً:

يقول الكاهن وهو يرشم الماء بالصليب رشماً واحداً: محبة الله الآب، ونعمة الابن الوحيد ... الخ.

”عظيم أنت يارب وعجيبة أفعالك^(٦)، وليس من قول يفني بتسبيح عجائبك (تقال ثلاث مرات ويحجب الشعب: المجد لك ياربُ

المجد لك). لأنك بمشيئتك، أبرزت جميع الأشياء من العدم إلى الوجود^(٧)، وبعزتك تضبط الخليقة وبعنايتك تسوس العالم. أنت

الذي نظمت الخليقة من أربعة عناصر^(٨)، وكللت دور السنة بأربعة فصول^(٩). منك ترتعد القوآت العقلية. إياك تُسبِّح

الشمس، وإياك يمجّد القمر. لك تخضع النجوم. إياك يُطيع الثور. منك ترتعد اللجج. لك تتعبد الينابيع.“

يقول الشماس: أيها الجلوس قفوا.

”أنت بسطت السماء كخيمة. أنت ثبتت الأرض على المياه. أنت أحطت البحر بالرمل. أنت سكبت الهواء

للاستنشاق.“

يقول الشماس: وإلى الشرق انظروا^(١٠).

”إياك تخدم القوآت الملائكية. لك تسجد مواكب رؤساء الكهنة. الشاروبيم والكثيرو العيون، والسارافيم ذوو الستة

٦- بدءاً من هنا يكون قدّاس لقان عيد الغطاس في الكنيسة القبطية، نقلاً عن الطقس البيزنطي. وفي الطقس السرياني أيضاً صلاة ماء الغطاس تبدأ بنفس العبارة: عظيم أنت يارب وعجيبة هي أعمالك. ولكنها تختلف في المضمون بعد ذلك. وهي أيضاً صلاة موجهة لأقنوم الابن.

٧- يرد هذا التعبير عند الأقباط: ”مما لم يكن“.

٨- وهي الماء والهواء والنار والتراب.

٩- وهي الصيف والشتاء والخريف والصيف.

وهذا يثبت أن النص، بيزنطي الأصل، إذ أن النصوص الليتورجية القبطية تعرف ثلاثة فصول للسنة، مرتبطة بمياه النيل، وهي: فصل صعود مياه النيل (١٢ بؤونه - ٩ باه)، وفصل الزرع (١٠ باه - ١٠ طوبه)، وفصل جمع الثمار (١١ طوبه - ١١ بؤونه).

١٠- مرد الشماس: أيها الجلوس قفوا، وإلى الشرق انظروا، لا تعرفه غير الكنيسة القبطية فقط.

الأجنحة المنتصبون لديك، والقائمون حولك، يحتجبون خوفاً من مجدك الذي لا يُدن منه“.

يضيف النَّصُّ القبطي: ويسبِّحون قائلين:

فيقول الشعب: قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ رب الصبَّاءوت ... الخ.

فيقول الكاهن: قُدُّوسٌ ... أنت أيها الرَّبُّ وقُدُّوسٌ في كل شيء

”لأنك وأنت إله غير محصور وأزلي وغير موصوف، أتيت إلى الأرض، آخذاً صورة عبدي، صائراً إنساناً^(١١). لأنك أيها السيد، لم تحمل بفضل عواطف مراحمك، أن تعين جنس البشر مقهوراً من قِبَل الشيطان، بل أتيت وخلصتنا. فلذلك نعرف بالنعمة ونكرز بالرحمة ولا نُخفي الإحسان. أولاد طبيعتنا^(١٢) أنت حررتهم. الحشا البتولي بمولدك قدَّسته. فكلُّ الخليقة قد سبَّحتك في ظهورك^(١٣)، لأنك أنت إلهنا. على الأرض ظهرت، وبين النَّاس ترددت“.

يقول الكاهن: قدس هذا الماء وامنحه نعمة الأردن^(١٤).

”بحاري الأردن أنت قدَّستها، إذ أرسلت عليها من السَّماء روحك الكلِّي قدسه. وسحقت رؤوس التَّنَّابن المعششة فيها.

فأنت إذاً أيها الملك محب البشر، احضر الآن بحلول روح قُدُّسك، وقدَّس هذا الماء^(١٥) (ثلاث مرَّات ويحبب الشعب في كل مرة آمين). وامنحه نعمة الفداء، وبركة الأردن. اجعله ينبوعاً لعدم الفساد^(١٦)، موهبة التَّقديس^(١٧)، فداءً للخطايا^(١٨)، أكسيراً للأمراض^(١٩)، مبيداً للشياطين^(٢٠)، غير مقترب إليه من القوَّات المضادة، مملوءاً قوَّةً ملائكيَّةً^(٢١)، فيكون لجميع المستقين منه، وينضحون به، تنقيةً للنفوس والأجساد، شفاءً من الأهواء، تقديساً للمنازل، ولكلِّ منفعة ملائمة.

لأنك أنت^(٢٢) إلهنا، الذي بالماء والروح جدَّد طبيعتنا التي فسدت بالخطيئة.

أنت إلهنا الذي بالماء غرَّق الخطيئة على عهد نوح.

أنت إلهنا الذي في البحر أعتقت جنس العبرانيين من عبوديَّة فرعون على يد موسى.

أنت إلهنا الذي شقَّ الصَّخرة في البرية، فانفجرت المياه وفاضت الأودية، فأروى الشعب العطشان^(٢٣).

أنت إلهنا الذي بالماء والنَّار أنقذ إسرائيل من ضلالة البعل على يد إيليا^(٢٤).

فأنت الآن أيها السيد، قدَّس هذا الماء بروحك القُدُّوس^(٢٥) (ثلاث مرَّات ويحبب الشعب في كلِّ مرَّة آمين)، وامنح جميع الذين

١١- يذكر النَّصُّ القبطي: ”وصرت في شبه النَّاس“. أمَّا النَّصُّ اليوناني كما في المتن معرباً إلى العربيَّة، فهو الأدق.

١٢- يذكر النَّصُّ القبطي: ”ولادات الطَّبيعة“. أمَّا النَّصُّ اليوناني كما في المتن، معرباً إلى العربيَّة، فهو الأدق.

١٣- يذكر النَّصُّ القبطي: ”سبَّحتك سائر الخليقة لما أظهرتها“.

١٤- هذا بمثابة الاستدعاء الأوَّل، وهو بحسب النَّصِّ، استدعاء للابن.

١٥- هنا استدعاء للروح القدس بحسب الطَّقْس البيزنطي، وهو بحسب كتاب اللقَّان والسَّجدة في الكنيسة القبطيَّة، يُعدُّ الاستدعاء الثَّاني.

١٦- يذكر النَّصُّ القبطي: ”ليكن ينبوع البركة“.

١٧- يذكر النَّصُّ القبطي: ”موهبة طاهرة“.

١٨- يذكر النَّصُّ القبطي: ”حالا من الخطايا“.

١٩- يذكر النَّصُّ القبطي: ”طارداً للأمراض“.

٢٠- يذكر النَّصُّ القبطي: ”مخيفاً للشياطين“.

٢١- هنا يضيف القُدَّاس البيزنطي ماء المعموديَّة أفعالاً تختص بسر المعموديَّة فقط، لم ترد في إفشين البطريك صفرونيوس، مثل: حميماً لإعادة الولادة، تجديد اللُّوح، نعمة للتَّيني، سربالاً لعدم الفساد، ينبوعاً للحياة ... الخ.

٢٢- يضيف النَّصُّ القبطي: ”أيها الرَّبُّ يسوع المسيح“.

وهنا تحوَّلت الصَّلَاة من مخاطبة الآب إلى مخاطبة الابن، سواء في النَّصِّ اليوناني مترجماً إلى العربيَّة كما في المتن، أو في النَّصِّ القبطي عندما أضاف عبارة ”أيها الرَّبُّ يسوع المسيح“.

٢٣- لم ترد هذه الفقرة بكاملها في القُدَّاس القبطي.

٢٤- إيليا وليس أليشع كما تذكر التَّرجمة العربيَّة في كتاب اللقَّان والسَّجدة في الكنيسة القبطيَّة.

٢٥- هذا هو الاستدعاء الثَّاني بحسب الطَّقْس البيزنطي، والاستدعاء الثَّالث بحسب الطَّقْس القبطي.

يلمسونه، والذين يُدهنون به، ويتناولون منه^(٢٦)، التَّقْدِيسَ وَبِرَكَّةٍ وَالتَّنْقِيَةَ وَالصَّحَّةَ.

وخلص ياربُّ عبيدك ملوكنا المؤمنين، واحفظهم تحت سترك بسلام. أيدهم في كلِّ عمل صالح لأجل كلِّ شعبك. هبهم وسائل الخلاص والحياة الأبدية. اذكر ياربُّ رئيس كهنتنا (ثلاثاً) وجميع الكهنة والشمامسة خُدَّام المسيح، وكلُّ طغمة كهنوتية ورهبانية، والشَّعب الواقف حولنا، وإخوتنا الذين تخلفوا عنَّا لعلل ممدوحة، وارحمهم وإيانا كعظيم رحمتك.

لكي يمجِّد اسمك الكليَّ قدسه، مع الآب والروح القدس، بالعناصر والملائكة والبشر والبرايا المنظورة وغير المنظورة^(٢٧).
الآن وكلُّ أوانٍ و إلى دهر الداهرين“.

انتهى إفشين الظهور الإلهي لصفرونيوس بطريرك أورشليم

(٤) تعقيب على النَّص:

- لقد صاغ النَّاسخ القبطي إفشين البطريرك صفرونيوس، ليوائم العناصر الليتورجية لُقُدَّاس الإفخارستيا.
 - وجدير بالذكر هنا، أنَّ عبارة (القُدَّسات للقُدَّيسين) التي ترد في نهاية القُدَّاس القبطي، لم ترد في بعض مخطوطات القرن الرَّابِع عشر الميلادي مثل (طقس ٣١١، ٣٥٩) بالمتحف القبطي
 - ومرد الشَّماس: (خلصت حقاً ومع روحك أيضاً)، يرد في بعض المخطوطات بصيغة: بخوف الله أصغوا.
 - الهدف من هذه المراسيم كلها، هو هدفٌ واحدٌ، وهو تذكُّار معمودية الرَّبِّ، وتقديس مياه الأردن.
 - كان السُّريان والأرمن قد استعاروا هذه الصَّلَاة من اليونان، كما استعارها أيضاً منهم الأقباط والأحباش متجاهلين جزءاً كبيراً من الصَّبِغ الليتورجية التي وردت بها.
 - ليست هناك أدلة وثائقية تفيد ممارسة قُدَّاس لُقَّان الغطاس في مصر في الثمانية قرون الأولى. وهو ما عرفناه من القُدَّيس يعقوب الرَّهاوي (٦٣٣-٧٠٨) الذي قضى في الإسكندرية عدَّة سنوات ويذكر البطريرك ميخائيل الكبير (١١٦٦-١١٩٩م) سنة ١١٧١م أنَّ طقس تبريك الماء في عيد الغطاس، لم يُعرف في مصر حتى القرن الثَّاني عشر الميلادي.
 - بموجب التَّقْلِيد الأرمني، فإنَّ صلاة تبريك ماء اللُقَّان في عيد الغطاس، هي من وضع القُدَّيس باسيلوس الكبير (٣٣٠-٣٧٩م)، وأضاف إليها بعد ذلك البطريرك صفرونيوس .
 - يشير يوحنا الصَّائم بطريرك القسطنطينية (+٥٩٠م) إلى طقس تبريك مياه الإيفانيا، ويقول بأنَّ الثَّائنين الذين كانوا تحت قانون توبة، كانوا يشربون من ماء لُقَّان عيد الإيفانيا في أعياد ميلاد المسيح والإيفانيا والفصح، بديلاً عن التَّنَاول من جسد الرَّبِّ ودمه في زمن توبتهم.
 - هنا تبرز لدينا أهمية افتتاح آية كنيسة على التَّقْلِيد الليتورجي لأية كنيسة أخرى. فهذا هو سرُّ الوحدة والمحبة التي جاء المسيح من أجلها. ولكن في ذات الوقت، تبقى السَّمات الليتورجية لكلِّ كنيسة، سمات مستقلة، تحفظ هويَّتها الشَّخصية. والمثال الواضح لذلك هو إفشين صفرونيوس بطريرك أورشليم، ولقان الغطاس عند الأقباط.
- كلُّ عام وأنتم بكلِّ خير.

٢٦- يذكر النَّص القبطي: ”وامنح الذين يستعملونه بكل نوع، أو الذين يلمسونه، أو الذين يشربون منه، أو الذين يغتسلون منه“.

٢٧- يذكر النَّص القبطي: ”ومن جهة الذين يرون والذين لا يرون“.